ازدهار الصناعة والزراعة في بلاد السودان الغربي بعد القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كما وصفته المراجع العربية الإسلامية

دريد عبد القادر نوري*

* حصل على دكتوراه الفلسفة في التاريخ من جامعة بغداد عام ١٩٨١.
استاذ مساعد في قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الموصل.

الملخص

نظرا لعدم وجود الموانع العسكرية والإجتماعية مع أفريقيا جنوب الصحراء ، وحب العرب للتجارة ، ودفع الإسلام لهم من أجل نشر الإسلام في العالم ، فقد اندفع العرب بعد القرن الأول الهجري إلى بلاد السودان الغربي ، الواقعة إلى الجنوب من بلاد المغرب العربي ، ويفصل بينهما الصحراء الكبرى . وأرض السودان الغربي هي جزء من بلاد السودان الكبرى ، التسمية التي أطلقها المؤرخون العرب على كل الأرض الواقعة إلى الجنوب من الصحراء الإفريقية الكبرى والممتدة من البحر الأحمر شرقاً وإلى المحيط الأطلسي غرباً .

لقد عاش سكان تلك الأرض سنوات طويلة جدا ـ قبل اختلاط العرب بهم ـ بشكل بدائي ، وكانت صناعاتهم بسيطة ، كما كانت زراعتهم بدائية ، وحياتهم الإجتماعية متخلخلة ، لا وجود للأسرة المتماسكة عندهم ، كذلك لم يألفوا الحكومات والدول المنظمة . وما أن حل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي حتى بدأ أولئك السكان يألفون نوعاً جديداً من الحياة الثقافية والإقتصادية والإجتماعية المشبعة بروح الإسلام ، والمستمدة أصولها ، في الحياة العامة ، من العرب الذين أخذوا يختلطون بهم بمختلف الطرق « لا فرق بين أبيض وأسود إلا بالتقوى . . » فأخذوا يتزوجون من بناتهم ويتاجرون معهم . ثم وصل الحال بهم أن أصبحوا وزراء ومستشارين لكبار قادتهم ، وذلك لصدقهم وإخلاصهم وعدم استعلائهم على السودان .

وهكذا أخذ العرب والإسلام يغذي السودان بكل المعارف والعلوم التي كان العرب قد سبقهم إليها بقرون طوال . فقد تعلم السودان من العرب وسائل جديدة للزراعة ، وطرق جديدة للصناعة والتعامل التجاري . وأصبح السودان بفضل الإسلام جزءا من الأمة الجديدة وأرضها .

من الواضح أن مصادر التاريخ الإفريقي لجنوب الصحراء مصادر قليلة جداً ، نظراً لتأخر الحضارة في هذا الجزء من العالم ، علماً بأن احتكاك العالم المتحضر بجنوب الصحراء كان احتكاكاً جانبياً غير مؤثر إلى أن دخل الإسلام إلى هذه المنطقة واحتك بأهلها العرب المسلمين احتكاكاً مباشراً .

وكانت عزلتهم هذه ، وبساطة عيشهم مستمرة حتى القرن الرابع للهجرة / العاشر الميلادي حيث عصر المؤرخ الجغرافي ابن حوقل الذي قال عنهم : « إنهم مهملون ولا يستحقون إفراد ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك » (ابن حوقل ، ١٩٣٨ : ١٩) التي أفرد لها ابن حوقل فصلاً مستقلاً .

وقد جاء الحديث عن بلاد السودان الغربي في معظم مصادرنا القديمة ـ ذات العلاقة ـ بشكل عام لا يلفت النظر ، وربما كان الحديث في بعض تلك المصادر لا يتجاوز بضع صفحات كحكايات عابرة عن طبيعة الزنوج وعاداتهم ، أوعن طبيعة الأرض ، أوشمولية حديثها عن العمران البشري والطبيعة الجغرافية التي زارها وشاهدها المؤرخ الجغرافي المسلم .

ويمكن أن نتتبع أهم المصادر الأساسية حسب تسلسلها الزمني مبتدئين بمؤرخي القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد . وقد جاء في مقدمتهم الاصطخري الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة ، والذي بدأ تجواله للعالم الإسلامي في رمضان سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٣م . وقد شمل جل نشاطه افريقيا الشمالية والأندلس ، وعليه فإن مادته التي قدمها عن السودان الغربية جاءت بالواسطة من أشخاص التقى بهم ودوّن عنهم ما شهدوه أو سمعوه .

وقد قدم الاصطخري في كتابه **المسالك والممالك** مادة ليست بالكثيرة عن بلاد السوادن الغربي ، وقد تحدث عن الطرق والمسالك المؤدية إلى هناك ، علماً بأنه لم يتعرض إلى النواحي الإقتصادية أو الإدارية لبلاد السودان الغربي ، وعليه فإن هذا الكتاب أفاد بوجه خاص في تحديد النواحي الجغرافية .

ويأتي بعد الاصطخري (ابن حوقل) ، ممن عنوا بالجغرافيا الوصفية ، وقد قدم في كتابه **صورة الأرض** معلومات جيدة عن بلاد السودان الغربي ، بالإضافة إلى المعلومات المفصلة التي قدمها عن ساحل إفريقيا الشرقي . وكانت مادته قيمة ، نظراً لكونها من أقدم ما وصل إلينا عن أرض السودان بشكل مفصّل .

فقد أشار ابن حوقل إلى زيارته لغانة ، وتحدث عن مشاهدته لنهر النيجر ، الذي ظنه خطأ بأنه جزء من نهر النيل بسبب تدفقه باتجاه الشرق ـ وهذا هو حال معظم مؤرخينا القدامى ـ غير أن معلوماته عن السودان الغربي جاءت ناقصة ، وغير مرتبة بالنسبة لما قدمه من مادة عن شمال إفريقيا أو باقي أنحاء العالم الإسلامي ، نظراً لأن ابن حوقل لم تعجبه حضارة بلاد السودان الغربي ، ولم يلفت نظره السودان ، مما دفعه إلى اتهامهم بأنهم قوم مهملون ، لاحظ عندهم في انتظام الممالك والديانات ، كما أشرت إلى ذلك من قبل .

أما أهم من كتب عن بلاد السودان في القرنين ٥ و ٦ هـ / ١١ و ١٢م فهو أبو عبيد البكري (ت : ٤٨٧هـ / ١٠٩٤ م) مؤلف كتاب **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب** ، وقد أمدّني هذا الكتاب بمعلومات غاية في الأهمية فيما يخص النواحي السياسية والإقتصادية والإدارية . وكانت كتاباته أول محاولة جادة وضعت مسحاً عاماً لأرض السودان والبلاد المجاورة لها .

فقد تحدث البكري عن الصحراء الإفريقية ووادي درعة والطرق الموصلة إلى بلاد السودان ، كما تحدث عن عبد الله بن ياسين ، والمرابطين ، وعن كيفية دخولهم إلى أرض السودان الغربي ، ثم أعقب ذلك حديث مفصل عن بلاد السودان ، ومدنها المشهورة ، وما فيها من الغرائب . كما تحدث أيضا عن سِير السودان وما امتازوا به . ومن الواضح أن جلّ حديثه كان عن مملكة غانة لأنه عاصرها ، وعليه فإنه لم يتحدث عن مالي أو عن دولة الصنغاي .

والذي يبدو أن مادته كانت الأساس الذي أعتمده من جاء بعده من المؤرخين . وتكمن أهمية مؤلف البكري في أنه قَدَّم لنا العديد من النصوص المهمة التي تطرقت إلى الحياة الإقتصادية للسودان ، وأهم صناعاتهم في عهد دولة غانة ، التي استمرت بشكل أو بآخر في عهد دولتي مالي والصنغاي .

أما مؤلف الادريسي (ت : ٥٥٠ هـ / ١١٦٠م) **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** فقد قدم معلومات جيدة في وصف شمال إفريقيا وبعض مناطق بلاد السودان ، وكانت طريقته في ترتيب كتابه بسيطة .

والمشكلة الوحيدة التي تجابه القارىء هي أنه إذا أراد وصف قطر ما فإن عليه أن يقرأ وصف العديد من الأقاليم ، لأن وصف الإدريسي للقطر الواحد يأتي موزعاً ضمن وصف الإقليم .

وقد قدم الإدريسي معلومات غنية جداً عن أهم مدن السودان الغربي ، والمسافة بين كل منها . كما أن الإدريسي قدّم مادة وافية عن طبيعة السودان ، وطبيعة أرضهم ، وأهم مآكلهم ، غير أن معلوماته كانت بشكل عام مختصرة ومشتتة .

ففي أثناء حديثه عن مدينة تكرور يتحدث ـ عرضاً ـ عن تجارة العبيدِ ومَصدَرِها ، كذلك فالإدريسي كغيره من المؤرخين القدامى يسمى خطأ نهر النيجر بنهر النيل .

أما أهم من كتب عن السودان الغربي في القرن الثامن للهجرة / ١٤م فهو ابن فضل الله العمري (ت : ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) مؤلف كتاب **مسالك الأبصار** ، وهذا الكتاب موسوعة كبيرة تتألف من اثنين وثلاثين جزءاً ، لا يزال في معظمه مخطوطاً حتى اليوم ، ويحتوي على ستة عشر جزءاً مزدوجاً ، وتقع في تسعة آلاف وثمانمائة وإحدى وثمانين صفحة خطية . وقد قسم العمري كتابه إلى قسمين خصص الأول للأرض والآخر لسكانها ، وينقسم القسم الأول إلى قسمين سمى الأول بعنوان موجز وهو **ذكر المسالك** وجعله في خمسة أبواب . أما القسم الثاني فقد سماه **في ذكر الممالك** وينقسم إلى خمسة عشر باباً ، وصفت على التوالي البلدان الإسلامية ابتداء من الشرق وانتهاء بالغرب . وفي هذا القسم تطرق إلى ذكر بلاد السودان الغربي وخاصة مملكة مالي التي سماها « ملّي » .

وفي نهاية القرن الثامن للهجرة / ١٤م برز لنا كتاب **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** للرحالة ابن بطوطة (ت : ٧٧٩هـ / ١٣٧٣م) وقد قدم لي هذا الكتاب مادة جيدة للغاية ، حيث تحدث ابن بطوطة عن مشاهداته الشخصية لمملكة مالي ، ولذلك فكتاباته معاصرة ، وذات قيمة من الناحية التاريخية .

ويظهر من روايات ابن بطوطة أنه كان قد زار سلطان مالي منسا سليمان ، وتحدث معه ، وأنه كان قد طاف كثيراً في أرض السودان . وقد حدثنا عن شمول الأمن في السودان الغربي في العهد الإسلامي ، كما حدثنا عن العديد من عادات وتقاليد سكان المنطقة ، بالإضافة إلى الحياة الإقتصادية . وعليه فإن مادة ابن بطوطة أفادتني في كتابة التأثيرات السياسية والإقتصادية لانتشار الإسلام في السودان الغربي .

ومن المصادر المعاصرة المهمة أيضا مؤلّف ابن خلدون الموسوم **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر** وقد طالعنا ابن خلدون بمادته في نهاية القرن الثامن للهجرة / ١٤م وقدم لنا معلومات جيدة عن السودان في المجلد السادس في الفصل الذي عقده عن الخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء هؤلاء الملتمسين ، ووصف أحوالهم والإلمام بما اتصل بنا من دولتهم .

وقد تحدث ابن خلدون في هذا الفصل باختصار ، على غير عادته عن مملكة غانة ، وكيف سقطت بيد المرابطين ، وكيف انتشر الإسلام فيها ، ثم يخرج أخيراً إلى الحديث عن سقوط غانة بيد قبائل الصوصو الوثنية التي لم يستمر حكمها طويلا ، حيث آلت إلى الزوال على أيدي الماليين . وهنا يتحدث ابن خلدون عن دولة مالي وعن ملوكها ، وينتهي حديثه عن الملك منسا سليمان الذي توفى سنة ٧٩٠هـ ، وبذلك فإن أغلب ما قدمه ابن خلدون شمل النواحي السياسية ، وشيئاً قليلا عن النواحي الإدارية .

ومن الجدير بالذكر أن ابن خلدون يسمى غانة « غانيه » في أغلب الأحوال (ابن خلدون ، ١٩٥٩ : ٦ / ٤١٢ - ٤١٣) وأنه أحيانا يذكر مصادره في حين يتجاهلها أحيانا . فعن الكتب يقول : « ذكر صاحب المسالك والممالك » (ابن خلدون ، ١٩٥٩ : ٦ / ٤١٢) . وعن الأشخاص يقول : « قال الحاج يونس ترجمان التكرور . . . وهو من قواد منسا موسى» (ابن خلدون ، ١٩٥٩ : ٦ / ٤١٤) «وقال الحاج يونس ترجمان هذه الأمة بمصر » (ابن خلدون ، ١٩٥٩ : ٦ / ٤١٦) وفي بعض الأحيان يذكر اسم الشخص من دون ان يعرفنا به فيقول : « قال أبو خديجة » (ابن خلدون ، ١٩٥٩ : ٦ / ٤١٦) .

ومصادر ابن خلدون هذه تدل على أنه نقل مادته بالواسطة وأنه لم يشاهد منطقة السودان الغربي ولم يطلع على أحوالها . غير أن تلك المصادر تدل على أن ابن خلدون اعتمد مصادر موثوقة في زمانه كترجمان السودان في مصر الذي كان الواسطة بين ملوك السودان وبين حكام مصر .

هذا بالاضافة إلى أن ابن خلدون نقل بعض مادته عن المسالك والممالك لابن فضل الله العمري الذي كان من أهم مصادر السودان الغربي وقد سبق ذكره .

أما أهم المصادر التي تحدثت عن الذهب وكيفية استخراجه والإفادة منه فكان كتاب **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة** لمؤلفه يوسف الحكيم . وقد ألفّ الكتاب بحدود سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٦٥م .

وقد تحدث الحكيم في هذا الكتاب عن صفات الذهب ، وعن التسميات التي تطلق عليه ، وعن كيفية تعدينه وضربه في دار السكة .

وقد جاء الكتاب بعشرة أبواب صغيرة شملت الحديث عن معظم المعادن الثمينة كالنحاس والفضة بالإضافة إلى الذهب ، وقد قدم لنا الحكيم في هذا الكتاب دراسة شاملة عن المعادن وأهميتها وطرق تعدينها ، مما لا نتمكن أن نجده إلا متفرقا في مصادر شتى .

أما أهم من ألف عن السودان الغربي في القرن العاشر للهجرة / ١٦م فهو الحسن بن الوزان الزياتي الذي دعي بـ (ليون الإفريقي) . وقد ألف الزياتي كتابا أسماه **وصف إفريقيا** قدم فيه جملة قصص ورحلات جغرافية وأهداه لجروم فراكاستور سنة ١٥٥٥م .

وكان هذا السفر باللغة الإيطالية ثم ترجم إلى اللغة الفرنسية . وفي سنة ١٦٠٠م ظهرت الترجمة الإنكليزية ثم أعقب ذلك ترجمات عديدة باللغات نفسها ولغات أخرى كالاسبانية والهولندية ، وأخيرا ترجم إلى العربية في مطلع سنة ١٩٧٩م بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول في الرياض في المملكة العربية السعودية ، وذلك لأن النسخة العربية الأم كانت قد فقدت وبقيت النسخة الإيطالية الأولى كتبها الوزان وهو في الأسر لدى الطليان ، وكان يومها قد تعلم اللغة الإيطالية .

ومما يعطي لكتاب الوزان قيمته أن مؤلفه دون ما شاهده بنفسه أثناء تجواله في أرض السودان الغربي ، علما بأن خدمته لدى السلطات العليا مكنته من الاطلاع على الكثير من الحقائق . فقد كان يعمل في خدمة السلطان المغربي محمد السادس سنة ١٥٠٨م ، وكان يرسله على الدوام في مهمات سياسية إلى بلاد السودان الغربي .

وقد قسم الزياتي كتابه إلى تسعة أقسام أسمى كل واحد منها باسم « كتاب » وفي الكتاب السابع من تلك الكتب وصف السودان الغربي بشكل دقيق ، ولكن مع ملاحظة أن المؤلف كان لا يتحدث بشكل عام إلا عما يعرفه أو زاره بنفسه (الزياتي ، ١٣٩٩ هـ : ٤١) ولذلك فالكتاب يفتقد إلى العديد من المعلومات التي كان يجهلها ، كما أن قوله بأن العرب لم يصلوا إلى أرض السودان الغربي إلا بعد القرن الخامس للهجرة / ١١م قول خاطىء ، وذلك لأنهم عرفوا السودان الغربي ووصلوا إليه ، وكانت لهم معه تجارات مستمرة ورابحة ، كما أنه كان لديهم العديد من الدعاة الذين نذروا أنفسهم لخدمة الإسلام ونشره هناك .

وأخيراً . فإن أهم من ألف عن بلاد السودان الغربي من الأفارقة هو السعدي (ت : ١٦٥٥) في كتابه **تاريخ السودان** الذي شمل ثمانية وثلاثين فصلا سمى كل واحد منها (بالباب) ، ابتدأها بالحديث عن ملوك صنغاي في الباب الأول الذي أسماه « ذكر ملوك صنغاي » (السعدي ، باريس : ١٩٦٤) ، وأنهاها بالفصل الأخير الذي تحدث فيه عن تاريخ السودان الغربي من سنة ١٠٦٣م إلى عام ١٠٦٥م .

وقد تحدث السعدي في الأبواب الأولى من كتابه عن ملوك صنغاي ، وعن أول سن (أي ملك) وهو علي كلن ، ثم عن استيلاء كنكن موسى على مملكة صنغاي .

أما في الكتاب الرابع فقد تحدث عن مالي ، في حين شمل الكتاب الخامس حديثا عن « جنى ونبذة من أخيارها » (السعدي ، باريس : ١٩٦٤) ، كما تحدث السعدي أيضا عن مدن غرب إفريقيا المهمة ، وعن الطوارق ، وعن مدى التقدم العلمي الذي وصلت إليه دولة الصنغاي في آخر عصرها . وكذلك عن بعض جوانب التنظيمات العسكرية والإدارية لأرض السودان الغربي في القرن الحادي عشر للهجرة / ١٧م .

وهكذا يبدو أن السعدي لم يقدم مادة تاريخية عن النواحي الإقتصادية للسودان الغربي .

إن أرض السودان الغربي هي جزء من بلاد السودان الكبرى التي أطلقها المؤرخون والجغرافيون العرب على كل الأرض التي تقع جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى والممتدة من البحر الأحمر شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً . وعلى ما يبدو فقد استوحى العرب لون بشرة السكان فأطلقوا كلمة « السودان على كل الأقوام التي تسكن هناك وعلى بلادهم قالوا « بلاد السودان » (Devic, 1985: 11) .

أما حدود أرض السودان الغربي فتبدأ من ثنية نهر النيجر الشرقية وحتى المحيط الأطلسي غرباً (Trimingham, 1959: 10) ويحدها من الشمال الصحراء الكبرى ، ومن الجنوب إقليم الغابات الممطرة ، وهو يشمل الآن تقريبا حوض السنغال وغينيا وفولتا العليا والنيجر الأوسط (Devic, 1985: 11).

وقد تميز سكان السودان الغربي قبل القرن ٥ / ١١ م بالبساطة والبدائية ، وبقلة التخصص في الوظيفة الإجتماعية ، حتى ان المؤرخ الجغرافي ابن حوقل تجاهل تفصيل ذكر أخبارهم باعتبارهم من الأمم التي لاحظ لها في انتظام السياسة والحكم والديانة والآداب .

ومن استقراء المصادر التاريخية بدا أن سكان بلاد السودان الغربي كانوا قبل دخول الإسلام إليهم « متفرقين » ، فلم تكن لديهم دول منظمة على أسس عقائدية ، ولم يكن معتقد واحد وشريعة واضحة يراجعونها ، إنما عبدوا أرواح الأجداد ، وتماثيل وأنصاب ، بينما عمد بعض منهم إلى تعظيم بعض الحيوانات وتقديسها ، إضافة إلى شيوع الاعتقاد بالسحر والعرافة والعمل بهما[1] علما بأن بعضا منهم كانت لديهم إشعاعات بسيطة لأفكار مجوسية أو يهودية (الزياتي ، ١٣٩٩هـ : ٧٦ - ٧٧) .

أما عادات السودان فلم تكن بأحسن من معتقداتهم ، فقد فشى بينهم العرى والتعري ، وكانوا قليلا ما يستترون ، إضافة إلى أنهم كانوا يتناكحون بغير صدقات . وكانوا يعتقدون كثيرا بالسحر ويؤمنون به ، وكان بعض منهم ممن يسكن إلى الجنوب من أرض السودان الغربي يأكل لحوم البشر . (الإدريسي ، ١٩٧٠ : ٢٢) ، (ابن بطوطة ، ١٩٦٤ : ٦٩٣) ، (زناتي ، ١٩٦٩ : ١) .

الأطلس الجغرافي لبلاد السودان الغربي

وبعد أن استقر الإسلام في شمال إفريقيا أخذ العرب والمسلمون يتغلغلون إلى أرض السودان الغربي تدريجيا ، وما ان حل القرن الخامس الهجري / ١١م حتى ظهر الإسلام كقوة كبيرة في المنطقة ، أخذ الوثنيون يحسبون لها الحساب ، ثم أخذ بعدها الإسلام يستقر في نفوس السودانيين ، ويعمل على تغيير فكرهم وعاداتهم بما يتفق والشريعة الاسلامية ، حيث توسعت غانه القديمة لتصبح أول دولة إسلامية تضم معظم السودان الغربي ، ثم أعقبها قيام دولة مالي الإسلامية ، وأخيرا ظهرت دولة الصنغاي التي كانت أقوى تلك الدول وأهمها .

ومن الواضح فإنه ليست لدينا معلومات دقيقة عن بدء قيام دولة غانة . إذ يرى البعض أنها قامت في القرن الثاني للميلاد ، ويرى آخرون أنها قامت في القرن ٣م في حين ذكر المؤرخ (السعدي) أنها قامت في القرن ٤م . وقد انتشر الإسلام فيها بشكل كبير بعد خضوعها لنفوذ المرابطين عام ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م ، واستمرت تحكم حتى القرن ٧هـ / ١٣م حيث تحولت قيادة المنطقة بيد دولة مالي الجديدة ، التي حكمت من ٦٣٦ - ٨٨٦هـ / ١٢٣٨ - ١٤٨٨م ، والتي انتهى حكمها بتقليص نفوذها وعودتها إلى سابق عهدها (نياني العاصمة) لتكون مدينة تابعة لدولة صنغاي الجديدة ، التي كانت من أقوى الدول الإسلامية وأكبرها في السودان الغربي . وقد ظلت تحكم صنغاي حتى سنة ٩٩٩ هـ / ١٩٥١م بعد ان سقطت عاصمتها بيد القوات المغربية[٢] .

لقد أدى دخول الإسلام إلى منطقة السودان الغربي[٣] إلى ازدهار الصناعة بشكل خاص والحياة الإقتصادية بشكل عام ، حيث قدم الإسلام المبررات النفسية والإجتماعية للعمل والعمال والحث على الكسب الحلال . فقد أخذ التعري بالاختفاء ، وأصبح الناس يرتدون الملابس ، ويقلدون العرب في كل ما هو إيجابي . وهكذا بدأت بعض الصناعات بالازدهار ، علما بأن السودان تعلموا من العرب وسائل جديدة لتطوير صناعة بعض المعادن المتوفرة لديهم كالذهب والماس مما سنذكره تباعا .

ومن الواضح فإن معدن الذهب كان من أهم المعادن الموجودة في السودان الغربي وبفضله تطورت التجارة بين الوطن العربي وبلاد السودان . وكان يدر على السودان أرباحا طائلة ، ولذلك تطورت صناعته كثيرا في العهد الإسلامي . وكان قبل دخول الإسلام إلى المنطقة يستخرج بطرق شتى ، وهي على الأغلب بسيطة لا تتعدى مرحلة الجمع والالتقاط ، وكانت بعض مناجم الذهب توجد في الجبال العالية التي يصعب الوصول إليها جنوبي بلاد السودان الغربي . (الحكيم ، ١٩٦٠ : ٣١) ، غير أن نهر النيجر يمر من خلالها فكان يجرف معه بعض المعادن والفلزات ، وعند غاو وتمبكتو كان يتسع مجراه فيفيض على الجوانب في موسم الأمطار ، وبعد أن ينتهي موسم الفيضان كانت الفلزات تترسب على جانبي الشاطىء ، يبقى الذهب من دونها معروفا بلمعانه ، فيلتقطه السودان ، ومن ثم يجمعونه ويبيعونه للتجار العرب .

وقد ذكر الإدريسي أن أهالي السودان الغربي كانوا يذهبون إلى جزيرة ونقارة بعد مدة فيضان نهر النيجر ، ويبدأون بالتقاط وجمع الذهب الذي جلبته مياه النهر في أثناء فيضانه ثم يبيعونه بعد ذلك للتجار العرب وخاصة تجار المغرب الاقصى فقال : « إذا حمى القيظ وخرج النيل[٤] فاض وغطى هذه الجزيرة (ونقارة) وأكثرها ، وأقام عليها مدته . . ثم يأخذ في الرجوع ، فإذا أخذ في الرجوع والجزر ، رجع كل من في بلاد السودان المنحشرين إلى تلك الجزيرة بحاثا طول أيام رجوع النيل ، كل إنسان منهم في بحثه هناك

ما أعطاه الله من التبر ، وما يخيب منهم أحد ، فإذا عاد النيل إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم مع البعض الآخر ، واشترى أكثره أهل ورقلان وأهل المغرب الأقصى . . وهكذا في كل سدة وهو أكبر غلة عند السودان وعليها يعولون صغيرهم وكبيرهم (الإدريسي ، ١٩٧٠ : ١ - ٢٤) .

وحقيقة التقاط الذهب من جزيرة ونقارة ، المار ذكره ، كانت غير واضحة لدى العديد من الزنوج السذج ، الذين تناقلوا أخبارا مفادها أن الذهب يزرع على جانبي النهر ، وينبت عقب الأمطار . وقد تناقل هذه الأخبار بعض مؤرخينا القدامى ، منهم ابن فضل الله العمري ، الذي ذكر القصة التالية عن بعض أمراء السودان فقال : « يؤخذ الذهب على نوعين : نوع في زمان الربيع ، ينبت عقيب الأمطار في الصحراء وله ورق شبيه بالنخيل ، أصوله التبر . والنوع الآخر يوجد في جميع السنة في أماكن معروفة على ضفاف النيل (اي النيجر) ، فتحفر هناك حفائر ، فتؤخذ أصول الذهب كالحجارة والحصى » . (العمري ، ج٢ ، ورقمه ٤٩٣) .

وقد تطورت عملية جمع الذهب بطريقة الالتقاط ، المار ذكرها ، بعد استقرار الإسلام في السودان الغربي حيث تعلم زنوج المنطقة فنوناً جيدة وعلمية ، تمكنوا بها من الحصول على كميات كبيرة من الذهب . وتتلخص هذه الطريقة بحفر حفرات عديدة في المناطق التي يسيل فيها نهر النيجر في المواضع السابقة التي كان يلتقط منها الذهب ، وهذه الحفر كانت تملأ بالزئبق وتترك حتى يحول الحول عليها ، ثم يؤتي إليها وقد صار الزئبق ذهباً . وذلك لأن الماء عندما يجري يحمل الرمل مع الذهب الذي يكون عادة كأجنحة البعوض رقة وصغرا ، وعندما يمر فوق حفر الزئبق يتعلق به ، بينما يجري الرمل مع الماء . (الحكيم ، ١٩٦٠ : ٣٠) .

كذلك وقد نظم الزنوج في السودان الغربي كشوفاتهم لمناجم الذهب بعد دخول الإسلام إليهم وازدياد النشاط التجاري وحاجة العالم الإسلامي إليه . لذلك كانت الدولة تضع يدها على المناجم الرئيسية المكتشفة وتمنع التصرف فيها بعد أن تضع عليها الحراسة الرسمية ، وكان السلطان نفسه يأتي في كل عام ليستخرج الذهب من تلك المناجم وينقله إلى مقر حكمه ثم يقوم بعدها بالإشراف على تصنيعه أو تصديره إلى خارج المملكة . وقد ذكر ابن فضل الله العمري قوله : « وحدثني السلطان موسى أن الذهب حمى له ، يجمع متحصله كالقطيعة إلا ما يأخذه أهل تلك البلاد منه على سبيل السرقة » . (العمري ، ج٢ ، ورقة ٤٩٧) .

أما طريقة تصفية الذهب وتخليصه من خبثه فكانت تتم إما بإذابته بالنار وحده ، إذا كان نظيفا بشكل عام ، أو باتخاذ الشحيرة[٥] . ووجه العمل في ذلك أن يكسر التبر ويهرس بمهراس ، ثم ينخّل بغربال قد أعد لذلك ، فما علا الغربال يسمى عشورا ، وما خرج عنه فيحك بالزئبق حكا منعماً ، فما قبله الزئبق فهو الذهب وما لم يقبله طرح . ثم بعد ذلك تؤخذ ، فتخلط عجينة الزئبق وتحمى بالنار إلى أن يذهب زئبقها فيبقى الذهب ، فيخلط مع العشور ويوزن ويحفظ وزنه ، ثم يسبك بالنار إلى أن يذاب ، ثم يصب قوالب معينة وهي التي تسمى بالسبائك . ثم يوزن بعدها ليعلم مقدار ما نقص منه أثناء السبك من الوزن الأول . (الحكيم ، ١٩٦٠ : ٦٩) . وهذه السبائك كانت تجلب من أرض السودان الغربي إلى مصانع ضرب العملة في المغرب ومصر ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وتتم عملية ضرب العملة بعد إعادة تصفية السبائك الذهبية من جديد عن طريق ترقيق السبائك المجلوبة بالمطرقة ثم توضع في الشحيرة ويوضع الكل بعدها في قدر يدخل بعدها في فرن ويوقد عليه النار يوما وليلة أو دون ذلك بنار لينة ثم يخرج منه ويقاس بالمعيار فإن بلغ حده نزل وسبك ثم دفع للمختصين بضرب العملة بالوزن . (الحكيم ، ١٩٦٠ : ٧٠) .

وبعد معدن الذهب يأتي في الأهمية معدن النحاس ، كمورد طبيعي قامت عليه العديد من الصناعات المحلية التي ازدهرت بشكل كبير بعد دخول الإسلام إلى منطقة السودان الغربي . ويبدو أن معدني النحاس والذهب قد بدىء في استعمالهما في السودان الغربي في وقت مبكر ، لأنه من السهل نسبياً استخلاص هذين المعدنين من خاماتهما على درجة حرارة اعتيادية ، بالإضافة إلى أن الزنوج استفادوا منهما في صنع أشكال فنية ومصوغات بسيطة نظراً لسهولة استعمال هذين المعدنين في الصناعة لعدم صلابتهما بشكل كبير كمعدن الحديد مثلا . وقد ذكر ابن بطوطة بشأن معدن النحاس أن أهالي السودان الغربي « كانوا يحفرون عليه في الأرض يأتون به إلى البلد فيسبكونه في دورهم » (ابن بطوطة ، ١٩٦٤ : ٦٩٧) مما يدل على أن عملية تعدينه كانت بسيطة للغاية وتتم محليا وباليد كصناعة استخراج الذهب .

ومما هو جدير بالذكر أن أهم منطقة تتواجد فيها مادة النحاس في أرض السودان الغربي هي منطقة (تكدا Takeda) الواقعة بين مدينتي غاوه وآدر في أقصى شرقي دولة مالي . وكان هذا المعدن ينقل من تكدا إلى عاصمة مالي نياني (العمري ، ج٢ : ورقة ٥٠٧) حيث يتم فيها صنعه محليا . وكان العمل يقوم به عادة العبيد والخدم وعامة الناس حيث يجعلونه سبائك من النحاس الأحمر ، ثم بعد ذلك يبدأون بتحويل تلك السبائك « قضبانا في طول شبر ونصف ، بعضها رقاق وبعضها غلاظ ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب ، وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال . وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح » . (ابن بطوطة ، ١٩٦٤ : ٦٩٧) .

وهكذا نرى من النص السابق أن أهالي مالي عامة و نياني العاصمة خاصة كانوا يعتمدون في عيشهم على تصنيع معدن النحاس محليا وبيعه للتجار العرب مقابل الحصول على السلع الضرورية التي يحتاجونها كالقمح والسمن وما إلى ذلك . وبذلك نجد ، بالمقارنة ، أن الذهب كان المعدن الأول الذي خضع لرقابة الحكومة وكان تصنيعه تحت إشراف السلطان ولخدمة الدولة . أما النحاس فكان تصنيعه يتم بواسطة الشعب ولأجل كسبهم وقضاء حاجاتهم ، وهو بذلك يمثل إلى جانب حرفتي الزراعة والرعي الحرفة الأساسية الشعبية التي مارسها عامة الزنوج في السودان الغربي .

أما فيما يخص الاستعمالات المحلية للنحاس داخل بلاد السودان الغربي فيتمثل بصناعة مواد الحلي والزينة ، حيث كان الزنوج يصنعون منه الأساور والخلاخل والمحابس ، وأغمدة السيوف والرماح ، وأنواع من السكاكين والجرار . كما كانوا يزركشون به ألبسة الرؤساء والقادة . ومن الجدير بالذكر أن أهالي غانه كانوا يصنعون من النحاس في بداية دخول الإسلام إلى المنطقة بعض أشكال الريبوس Repousse على شعارات السلطة . ونعني بالريبوس هنا طرق الصفائح النحاسية من الخلف لاحداث أشكال نافرة على الوجه ، وهي الأقنعة التي تظهر شكل وجه بشري أو رأس كبش ناطح . (كوردول : ٦٧) وكان لهذه الأقنعة وظائف جمالية ودينية خاصة استخدمها الزنوج أثناء الأعياد والاحتفالات .

وقد استفاد الزنوج في السودان الغربي من علاقاتهم مع البلدان الإسلامية في تطوير صناعة تعدين النحاس حيث توصلوا إلى معرفة طرق جديدة تمكنوا بها من تقوية معدن النحاس وذلك بصهره مع الزنك أو القصدير . ففي الحالة الأولى تحصل (سبائك النحاس الأصفر) وفي الحالة الثانية تحصل (سبائك البرونز) التي صنعت منها السيوف القوية وبعض الأواني ورؤوس النشابات والدبابيس والدروع ، وكذلك استخدمت العوائل المالكة السبائك الجديدة لبناء الأضرحة لنفسها ولمن يموت من ملوكها . (كوردول : ٦٨ - ٧١) .

كذلك وقد عرفت منطقة السودان الغربي معدن الحديد ، غير أنه بعد استقراء المصادر العربية القديمة لم أجد له ذكراً ولا لأماكن تواجده . ويبدو أنه اكتشف في فترة متأخرة وعلى الخصوص في عهد دولة الصنغاي . ومما هو واضح فإن الحاجة لهذا المعدن باتت ماسة بعد دخول الإسلام إلى المنطقة حيث ظهرت الإمبراطوريات السياسية وتشكلت الجيوش المنظمة التي احتاجت إلى السلاح الذي كان أقوى أنواعه ما صنع من الحديد .

وقد تطرقت بعض المراجع الحديثة إلى ذكر الحديد ومناطق تواجده ، وأشارت إلى أن معظم مناجمه وجدت في المناطق الجبلية الواقعة إلى الجنوب من أرض السودان الغربي ، وبالخصوص بالقرب من منابع النيجر . وقد ازدادت معرفة الزنوج بالحديد وكثرت مناجمه في عهد دولة صنغاي . (زبادية ، د.ت : ١٩٣) . وكانت هناك قبائل خاصة اشتهرت بصناعة الحديد كقبيلة كوروما Koroma التي دعيت باسم (قبيلة الحدادين) . (قداح ، د.ت : ٣٦) .

ومن الصناعات التي تطورت بشكل كبير وواضح بعد دخول الإسلام إلى منطقة السودان الغربي هي (صناعة الخياطة) ، نظرا لأن الزنوج كانوا بشكل عام ، قبل دخول الإسلام إلى المنطقة ، عراة لا يستترون - كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول - وبعد أن اعتنقوا الإسلام اهتموا بالاكتساء ، نظرا لأن الدين الإسلامي يوجب على أتباعه ستر العورات ، وهي بالنسبة للرجل من السرة إلى الركبة ، وبالنسبة للمرأة معظم جسدها . لذلك توجب على الزنوج الاهتمام بصناعة الخياطة وتطويرها ، وقد وجدوا في أرض السودان الغربي المواد الأولية لهذه الصناعة مما شجع على قيامها ، فهناك أنواع من الجلود الصالحة لصناعة الألبسة[٦] ، كذلك وجدوا الصوف والوبر الذي كان يؤخذ من الماعز والجمال ، بالإضافة إلى توفر أشجار القطن كما سنذكره تباعا .

كذلك فقد انتشرت في بلاد السودان الغربي صناعة أقمشة معينة ، كانت تعتمد على ألياف أشجار خاصة ، تسمى (تورزي) ، وكانت تلك الأقمشة ذات مميزات خاصة لا تعمل فيها النيران ، ولذلك كان لها صدى بالغ الأثر في الأوساط التجارية . ويقال إنها وصلت إلى ملك انكلترا وصاحب القسطنطينية ، وكانت معروفة أيضا في المشرق الإسلامي .

وقد ذكر البكري : « ومن الغرائب ببلاد السودان شجرة طويلة الساق ، لفيفته تسمى توزى ، تنبت في الرمال ولها ثمر كبير منتفخ داخله صوب أبيض ، تصنع منه الثياب والأكسية ، ولا تؤثر النار فيما صنع من ذلك الثوب من الثياب لو أوقدت عليه الدهر . . وقد صنع منها كساء لبعض ملوك زناته بسجلماسه . وأخبرني الثقة أنه شهد تاجراً جلب منه منديلا إلى جردلند صاحب الجلالقة ، وذكر أنه

منديل لبعض الحواريين ، وأن النار لا تؤثر فيه ، وأراه ذلك عيانا ، فعظم موقعه في جردلند ، وبذل فيه غناه ، وبعث به جردلند إلى صاحب قسطنطينية ليوضع في كنيستهم العظمى . . وقد حدّث جماعة أنهم منه هداب منديل عند أبي الفضل البغدادي تحمى عليه النار فيزداد بياضا وتكون له النار غسلا وهو كثوب الكتاب » . (القزويني ، ١٩٦٠ : ١٧٩ - ١٨٠) .

وبالإضافة إلى المواد الأولية الخاصة بصناعة النسيج ، فقد كانت تجلب إلى بلاد السودان الغربي أنواع كثيرة من الأقمشة والثياب ، مما دفع إلى تطور هذه الصناعة ، فانبرى الزنوج بصناعة أنواع عديدة من « الأزر والفوط والأكسية » (الإدريسي ، ١٩٧٠ : ١ - ١٤) . بالإضافة إلى ملاحف القطن والحرير ، لأن اللباس المخيط كان لا يلبسه إلا الملك وولي عهده وقد ذكر البكري : « ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير ولي عهده وهو ابن اخته . ويلبس سائر الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم » . (البكري ، ١٨٥٧ : ١٧٥) .

وعلى ما يبدو فإن صناعة النسيج قد تطورت عموماً في عهد دولة صنغاي بعد استقرار الإسلام في السودان الغربي ، وكانت هذه الصناعة منتشرة في معظم أنحاء البلاد ، وكانت بشكل عام حياكة باليد ، وكان أهالي السودان الغربي يتنافسون على تعلمها . ففي تمبكتو وحدها وجد أكثر من ستة وعشرين وكانوا على عهد الاسقيين ، وكان في كل دكان ما يزيد على الخمسين متعلماً . (الزياتي ، ١٣٩٩هـ : ٢٦ - ٢٧) .

وما هو جدير بالذكر أن دولة صنغاي عرفت صناعة الأقمشة القطنية التي كانت منتشرة في بعض مناطق السودان الغربي منذ منتصف القرن ٦هـ/١٢م ، وكانت مدينة غاءو (العاصمة) مركزا هاما لهذه الصناعة ، وقد تمكنت غاءو هذه من تصدير قسم لا بأس به من الإنتاج إلى مشارف الصحراء . (زبادية ، د.ت : ١٩١) .

كذلك وقد شاع استعمال الأصباغ لدى الزنوج في السودان الغربي بطريقة تدل على قدرتهم في التطور والتقليد . فقد عرفوا اللون الأحمر والأصفر والأزرق النيلي الذي يتفاوت في ظلاله من الأزرق الفاتح إلى لون يقترب من الأسود (السعدي ، ١٩٦٤ : ١٨) ، (كوردول : ٩٢) . وقد اقتبسوا معرفة الألوان هذه من التجار العرب الذي خالطوهم ، وكان الصباغون « يستعملون في تجسيمها أوراق النباتات ويضيفون إليها في الغالب الشب والملح » . (زبادية ، د.ت : ١٩٢) .

ومن الصناعات التي تطورت بعد دخول الإسلام إلى منطقة السودان الغربي صناعة الزيوت والصابون . وقد ذكر الأنصاري أنه وجد في بلاد صنغاي « شجراً يشبه الأراك يحمل ثمرا في قدر البطيخ في داخله شيء يشبه القند حلاوة يشعر بها حموضة يسيرة وشجر يسمى ريكان وثمره كالتمر ينفرك عنه قشره فيكون غاية الدهانة والحلاوة يستخرجون دهنه ويأكلونه عوضا عن السيرج والسمن ويفضلونه عليهما » (الأنصاري ، ١٩٢٣ : ٢٤) .

ومن الأشجار التي اكتشفت في السودان الغربي في العصر الإسلامي واستخدمت في صناعة الزيوت والصابون شجر اسمه قاريتي يحمل شبيه الليمون وطعمه شبيه طعم الكمثري بداخله نوى ملحم « يؤخذ ذلك النوى وهو طري ويطحن فيخرج منه شبيه السمن ، ويجمد فتُبيَّض به البيوت وتوقد منه السرج

والقناديل ويعمل منه صابون . وإذا أريد أن يؤكل ذلك الدهن يحرق بتدبير . . على نار لينة ويغطى ويترك إلى أن يقوى غليانه ويبقى الذي يدبره . . يوضعه بالماء قليلا مرات . . ثم يترك حتى يبرد ويستعمل في المأكل كالسمن . . وهذا الدهن يحرق كل جلد وضع فيه ولا يحمله إلا ظروف القرع » . (العمري ، ج٢ : ورقة ٤٩٧) .

كذلك وقد تطورت صناعة الجلود بعد القرن ٥هـ/ ١١م حيث استخدمت الجلود المدبوغة ككساء للإنسان ، وخاصة للفقراء منهم ـ كما مر ذكره ـ كما استخدمت الجلود في صناعة النعال الجيدة والسروج وكنانات السهام وما إلى ذلك (قداح ، د.ت : ١٢٣) ، وقد دفعت كل تلك الصناعات إلى تكاثر عدد صناع الجلود وإلى ازدياد الاهتمام بعملية الدباغة التي تطورت « واتخذت لها نباتات محلية عديدة وكذا قشور الرمان والأملاح . أما طريقتها فكانت تعتمد على الغلي والنقع » . (زبادية ، د.ت : ١٩٢) .

وقد ارتبطت بصناعة الجلود ، صناعة الآلات الموسيقية وخاصة الطبل الذي كان من أهم الآلات الموسيقية لدى سكان السودان الغربي ، وكانت الطبول تصنع بشكل عام من مادة الخشب والجلود القوية والرقيقة ، وتكون إما بجلدين أو جلد واحد . كذلك وينقسم الطبل إلى نوعين : إما على هيئة الأسطوانة أو على هيئة الطاس . ويدق الطبل عادة إما بقوة الأيدي أو بعصا معقوفة . (إبراهيم ، ١٩٦٥ : ١٧٢ ـ ١٧٣) .

وقد لوحظت استعمالات معينة للطبول : فقد استعمل كعلامة للبلاط الملكي ، واتخذ كأحد ميزاته . كما استعمل كإشارة من إشارات الحرب أو للانذار بقربها . كذلك استفيد منه في التمثيل وفي الحفلات الشعبية أثناء الاحتفالات والمراسم . بالإضافة إلى كل ذلك فقد كان نوع معين من أصوات الطبول يشير إلى عامة الشعب بقرب إصدار بلاغات الملك وأوامره . ولذلك فصناعة الطبول كانت رائجة ويقوم بها المهرة الذين كانوا يتفننون بصنعه وتزينه (Erlman, 1973: 37) .

ولا يخفى بأن الصناعات عموماً تطورت بعد دخول الإسلام إلى منطقة السودان الغربي حيث رافق دخول الإسلام إلى المنطقة ، دخول بعض جوانب الحضارة الإسلامية التي كانت متقدمة بشكل كبير على حضارة السودان الغربي ، وعليه فقد تأثر الزنوج بحضارة المسلمين تأثراً واجبا بحكم الطبيعة البشرية ، وبحكم التطور الحضاري حيث تتبع الحضارة المتخلفة الحضارة المتقدمة أو تقتبس بعضاً من جوانبها وتجعلها تتفق وطبيعة سكانها وأرضها ، ولذلك فلا عجب أن تتطور جميع الصناعات في السودان الغربي وذلك لتعرفها على عينات من الصناعات الإسلامية المتقدمة عليها .

ومن بين الصناعات التي لاقت اهتماما وتطويرا والتي كان لها علاقة بصناعة الأخشاب والتعدين (صناعة الأسلحة) والتي انحصرت بالقسى والنشابات والدبابيس والسيوف والرماح . (المغربي ، ١٩٥٨ : ٢٤) . وهذ الأسلحة طورت بشكل كبير بعد دخول الإسلام إلى المنطقة . نظرا لاحياء حركة الجهاد الإسلامي ضد القوى الوثنية المجاورة . وقد ذكر الإدريسي بأن أهالي السودان الغربي برعوا في العصر الإسلامي بتطوير أسلحتهم وخاصة بصناعة النشابات والدبابيس التي كانوا « يتخذونها من شجر الأبنوس ولهم فيها حكمة وصناعة متقنة » . (الإدريسي ، ١٩٧٠ : ١ ـ ٢٠) .

كذلك وقد أفاد الزنوج من الجلود في تطوير أسلحتهم حيث صنعوا من جملة أنواعها الجيدة دروعاً وخوذاً وخاصة (الدرق المطية) التي كانت خفيفة لينة لا ينفذها النشاب ولا يؤثر فيها السيف . وكانت من أحسن التراس المبسوطة والتي كانت تستر الفارس وفرسه . وهذه الدرق كانت تصنع من جلد حيوان يعيش في الصحراء يدعى اللمط وقد وصفه البكري بقوله : « وهو دابة دون البقر لها قرون دقاق حادة لذكورها وإناثها وكلما كبر منها الواحد طال قرنه حتى يكون أكثر من أربعة أشبار وأجود الدرق وأغلاها ثمنا ما صنع من جلود العواتق منها وهي التي طال قرناها لكبر سنها » . (البكري ، ١٨٥٧ : ١٧١) .

أما الزراعة فحسب التقارير التي قدمها المستعمرون الأوربيون عن غرب إفريقيا إبّان احتلالها في بداية القرن السابع عشر للميلاد تبين أن معظم الزنوج يحترفون الزراعة أويعتمدون في حياتهم على المرعى وأنهم يعيشون في مناطق قروية (The Committee of Africa, 1942: 117) . ومن هنا نرى بأن الزراعة قد نمت في غرب إفريقيا في العصر الإسلامي بحيث أصبح معظم السكان يشتغلون إما بالزراعة أو الرعي . وعلى الرغم من أنه لا توجد لدينا نصوص تاريخية تحدد نسبة الذين كانوا يشتغلون بالزراعة ، فإنه إذا استثنينا نسبة التجار والرعاة من سكان السودان الغربي ، فإن معظم الباقين كانوا فلاحين وكان مورد عيشهم يعتمد على الزراعة .

وقد قام النشاط الزراعي قبل الإسلام « على تجمع أفراد القبيلة في قرى متقاربة والعمل بشكل جماعي في الحقول ثم توزيع المحاصيل بينهم تحت إشراف القبيلة إلا أن الأسلوب والإنتاج الزراعي تغير بعد انتشار الإسلام وإدخال أنماط جديدة للإنتاج الزراعي » . (جاسم ، ١٩٨٠ : ٦٢) حيث بدأ تطور جديد في العمل من أجل تحسين ظروف الزراعة والاستفادة من الأرض الجيدة واختيار الحبوب المناسبة للأرض المناسبة .

وقد جاء ذلك التطور بفعل الخبرة المكتسبة في العلاقات التي حدثت بين زنوج السودان الغربي والعرب المسلمين اثر انتشار الإسلام في المنطقة . ولقد كانت الطريقة المتبعة لديهم في تسميد الأرض ، بالإضافة إلى رمي الفضلات العضوية عليها أودفنها ، أنهم كانوا ينتقون لهم حقلا زراعيا يحتوي على كثير من الشجر ، وعندما يحين موسم الأمطار يقوم زراع أهالي السودان الغربي بقطع أغصان الأشجار عن جذوعها مستثنين من ذلك الأشجار النافعة . وعندما يجف كل شيء تضرم النار فيها لكي تطهر التربة وتزودها بالسماد اللازم . وبعد هذه العملية تبدأ عملية قلب التربة ومن ثم زراعتها . وبذلك يحصلون على إنتاج جيد من المحاصيل . وعندما تستنزف هذه الأرض طاقاتها تترك لترتاح فترة من الزمن ويجري البحث عن غيرها « وهكذا نرى أن طريقة هؤلاء الإفريقيين تقضي بنقل الزراعة إلى أرض جديدة بعد استنزاف أرض زرعوها قبلا » . (بولم ، ١٩٧٤ : ١٦٤ - ١٦٥) .

ومن الجدير بالذكر أن الزراعة قبل دخول الإسلام إلى منطقة السودان الغربي كانت غير منظمة ، وتعتمد على زراعة محاصيل معينة كالذرة والشعير مثلا . في حين أصبحت بعد استقرار الإسلام في المنطقة زراعة منظمة وتعتمد أنواعاً عديدة من المزروعات سواء من جانب الحبوب أو الفواكه أو الخضر كما سنذكر تباعا . علما بأن كمية الزراعة نمت بشكل كبير جداً نظراً لاستقرار العديد من القبائل الزنجية ، أوهجرتها من الغابات الاستوائية أو الصحراء إلى منطقة السافانا حيث سيادة الاستقرار والتقدم الحضاري .

وقد تركزت الزراعة بشكل عام على جانبي نهر النيجر والسنغال وفروعهما ، وكانت الزراعة في هذه المناطق مستقرة وتعتمد على الإرواء من الأنهار المجاورة . أما الزراعة في المناطق الأخرى البعيدة عن الأنهار ، فإنها اعتمدت على مياه الأمطار ، ولذلك كانت الزراعة في هذه المناطق غير مستقرة ، إلا أنها تمتعت في العديد من المناطق بالازدهار الزراعي وبخاصة الوديان الخصبة التي كانت تستوعب مياه الأمطار أكثر من غيرها من المناطق الأخرى . (المغربي ، ١٩٥٨ : ٢٤) .

أما أهم المحاصيل الزراعية التي عرفت في منطقة السودان الغربي فهي الذرة التي اعتمد عليها طعام سكان السودان الغربي ، ولذلك كانت تزرع في مناطق عديدة من أرض السودان الغربي وبالإضافة إلى ذلك فإن الذرة استخدمها الزنوج كعليق لدوابهم وبخاصة الخيول والجمال وقد ذكر ابن فضل الله العمري قوله « والذرة لهم فيها قوت وعليق خيلهم وطعم دوابهم » . (العمري ، ج٢ ، ورقة ٤٧٥) .

ويأتي بعد الذرة في المقام الأرز الذي كان من الاغذية الرئيسية بالنسبة للسكان وخاصة في عهد دولة صنغاي بعد ان شاع استعماله بفضل ادخاله من قبل العرب إلى أرض السودان الغربي . (Hatch 1965: 11) لأن الأرز لم يكن معروفا بشكل كبير في عهد غانة ومالي ، ولم يتحدث عنه المؤرخون المعاصرون[٧] وقد تركزت زراعة الأرز حول نهر النيجر وروافده وذلك لحاجة هذا النبات إلى الماء الوفير ، علما بأن النوع الذي كان يزرع من الأرز نوع غير جيد يسمى (بالأرز النوبي) (زبادية ، د.ت : ١٧٣) . وهذا يدل على انه قد نقل من منطقة النوبة إلى السودان الغربي .

كذلك وقد زرع الزنوج القمح ، إلا أن زراعته كانت قليلة ولم يكن يأكله إلا المترفون من الملوك والأمراء . يقول صاحب الاستبصار : « وإنما يأكل عندهم القمح الملوك وأهل اليسار منهم ، وسائر أهلها يأكلون الذرة » . (مؤلف مجهول ، د.ت : ٢١٥) . ومن الجدير بالذكر أن زراعة القمح كانت نادرة والمتوفر لديهم إنما كان يجلب بشكل عام عن طريق التجارة فإلى عهد الإدريسي (٤٩٣ ـ ٥٦ هـ) لم يكن القمح يزرع في السودان الغربي لأن الإدريسي قال : « ولا حنطة عندهم » (الإدريسي ، ١٩٧٠ : ١ ـ ٢١) . ولذلك فما وجد منها قد جاء بعد القرن السادس للهجرة / ١٢م . ولذلك كانت أثمانه غالية جدا ولا يتمكن من الحصول عليه إلا أهل اليسار . أما عامة الناس فكان طعامهم الذرة بعكس الأرز .

كذلك وقد عرف أهالي السودان الغربي زراعة اللوبيا والقرع والبصل والثوم والباذنجان والكرنب ، غير أن الباذنجان قليل عندهم ، كما كانت تطلع الملوخيا برية (العمري ، ج٢ : ورقة ٤٧٦) . وقد اشتهرت المدن خاصة بزراعة البصل والقرع والبطيخ من المزروعات السابقة ، نظراً لأن الزنوج كانوا يحبون البطيخ والقرع والبصل كثيرا ويعظمونها خاصة وأن القرع كان يستفاد منه لأغراض صناعية كثيرة بالاضافة إلى استخدامه كطعام وقد ذكر الإدريسي قوله : « وأهل المدن يزرعون البصل والقرع والبطيخ ويعظم عندهم كثيرا » . (الإدريسي ، ١٩٧٠ : ١ ـ ٢١) .

ومن الجدير بالذكر أن القرع كان يستفاد منه ، بالإضافة إلى استخدامه في الطعام لأغراض كثيرة فقشوره كان يصنع منها الزنوج أواني لشرب المياه أو لتناول الأطعمة السائلة ، كذلك كان يستفاد منه لأغراض صناعية ، وكمثال على ذلك كانت الزيوت التي تصنع من شجر القاريتي ، المار ذكره ، توضع في

أواني من القرع وقد ذكر العمري قوله عن ذلك الزيت : « وهذا الدهن يحرق كل جلد وضع فيه ولا يحمله إلا ظروف القرع » . (العمري ، ج٢ : ٣١) .

أما أهم أشجار الفواكه التي زرعت في أرض السودان الغربي فكانت أشجار الجميز وهو كثير عندهم ، كذلك كانت تخرج عندهم أشجار « ذوات ثمار مأكولة مستطابة فيها شجر يسمى تاد موت . . وفي داخلها شيء شبيه دقيق الحنطة ساطع البياض . . . وهو يدخر عندهم للأكل والحطاب » . (العمري ، ج٢ : ورقة ٤٧٩) .

كذلك وجد في أرض السودان الغربي شجر سمي زبيزور تخرج ثمرته مثل قرون الخروب وهو حلو لذيذ الطعم وله نوى . ومن الأشجار التي عرفها الزنوج أيضا شجر يسمى « قومي يحمل شبيه السفرجل طعمه لذيذ يشبه طعم الموز » . (العمري ، ج٢ : ورقة ٤٨٠) .

ومما هو واضح فإن الزنوج في السودان الغربي عرفوا أيضا أشجار النخيل والتمور غير أن زراعته انتشرت فقط في القسم الشمالي الصحراوي . وقد ذكر مؤلف الاستبصار قوله : « وبلاد السودان لها بساتين كثيرة ونخيل كثير » . (مؤلف مجهول ، ٢١٥) .

ومن أهم الأشجار المثمرة التي عرفت في أرض السودان الغربي أيضا الفاريتي التي تشبه الكمثرى ، (جاسم ، ١٩٨٠ : ١١٤) ، وأغلب تلك الأشجار كانت تزرع قريبة من نهر النيجر وقرب الواحات المائية التي كانت تنتشر في القسم الوسطى والشمال الصحراوي . وكانت بعض أشجار الحمضيات تزرع بين أشجار النخيل لحمايتها من عواقب التقلبات الجوية .

أما أهم المزروعات التي دخلت في مجال التصنيع فهي (زراعة القطن) التي كانت رائجة في السودان الغربي نظراً لحاجة الزنوج إلى محصول القطن الذي كانت تصنع منه الملابس الباردة والناصعة البياض ، والتي كانت ولا تزال مفضلة لدى عامة سكان بلاد السودان الغربي ، علما بأن الإسلام شجع على الاكتساء وستر العورات ولذلك أقبل الناس على زراعة القطن للاستفادة من نسيجه في صناعة الملابس والستائر وما إلى ذلك من المصنوعات القطنية ، علما بأن أشجار القطن كانت مشهورة في السودان الغربي نظراً لضخامتها وكبر حجمها حتى انه كان بالامكان الاستظلال بها[٨] .

ومن الجدير بالذكر أن أهالي السودان الغربي لم يستخدموا المحراث في الزراعة أو الآلات المتطورة نسبيا ، وإنما كانوا يعتمدون على أنفسهم ، وكانت العائلة كلها تشترك في الزراعة ، أما الاغنياء فكان لديهم الأعداد الكبيرة من العبيد ، وكان العمل يتم بخصوص زراعة الحبوب « بالحفر بالفؤوس والاسقاء بالدلاء » (مؤلف مجهول : ٢١٥) .

الهـــوامش

١) راجع بخصوص معتقدات سكان بلاد السودان الغربي ما يلي :
القزويني ، **آثار البلاد وأخبار العباد** ، بيروت : ١٩٦٠ ، ص ٢٣ ، العمري ، **مسالك الابصار** ، مخطوط (دار الكتب المصرية) ، القاهرة رقم ٢٥٦٨ ، ورقة ٤٦٥ ، قداح ، **افريقيا الغربية في ظل الإسلام** ، ص ٣٤ ـ ٣٥) .

٢) للمزيد أنظر :
الناصري ، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ، (المغرب : ١٩٥٥) ج ٥ ، ١٢١ ـ ١٢٢ ، طرخان ، **دولة مالي** ، ص ٤٣ ـ ٥٠ ، رياض زاهر ، **الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا** ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ، دافيد سونا ، **افريقيا تحت أضواء جديدة** ، بيروت : ١٩٦٣ ، ص ١٨٢ .

٣) جاء في رسالتنا للدكتوراه فصل واف عن انتشار الإسلام في أرض السودان الغربى وعن أسبابه وسبله للمزيد أنظر : انتشار الإسلام في السودان الغربى في القرن ٥ ـ ١١ هـ/١١ ـ ١٦ م (رسالة دكتوراه غير منشورة) ، ص ٩٣ ـ ١٣٥ .

٤) ليس المراد هنا نهر النيل الذي يمر بأرض مصر والسودان الشرقي وإنما هو نهر النيجر وكانت عادة الجغرافيين العرب في العصور الوسطى أن يسمّوا كل أنهار إفريقيا الكبرى بالنيل ظناً منهم بأن أصولها واحدة .

٥) الشحيرة : مأخوذة من الفعل (شحر) بمعنى صفى المعدن أوخلصه من خبثه . والشحيرة هي دقاق الآجر الأحمر الجديد والملح مناصفة ، وكانت تضاف إلى المعادن ، وتحمى فتمتزج بالغريب المختلط بها وتخلص المعادن . أنظر : الحكيم ، السابق ، ص ٢٣ ، هامش رقم ٥ .

٦) فيما يخص استخدام الجلود في صناعة الألبسة ذكر القزويني أن معظم الزنوج كانوا يستخدمون الجلود للاكتساء وستر العورات بعد أن يصنعوا منها ألبسة ، وأن الموسرين من الناس فقط هم الذين كانوا يستخدمون الأقمشة (أنظر : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١١) . وأعتقد أن رواية القزويني تنطبق على الزنوج في بداية دخول الإسلام إليهم ، وأن الحال تغير بعد القرن ٦ هـ/١٢ م حيث كثرت المواد الأولية الخاصة بصناعة النسيج وكثر المجلوب من الاقمشة ، ولذلك انتشر استعمال القماش في صناعة الألبسة وانحسر استخدام الجلود .

٧) عند حديث الإدريسي والعمري والمؤلف المجهول عن الزراعة في بلاد السودان الغربى يذكرون العديد من الحبوب والبقول والفواكه ، ولا يتطرقون إلى ذكر الأرز ، ولذلك أرى أن الأرز دخل هذه البلاد في فترة متأخرة بفعل كثرة ورود التجار العرب والدعاة المسلمين إلى المنطقة بعد استقرار الاسلام فيها .
أنظر : **نزهة المشتاق** : ١/٢١ ، **مسالك الأبصار** ، ج ٢ ، ورقة ٣٧٠ ، **الاستبصار** ، ص ٢١٥ .

٨) فيما يخص ضخامة أشجار القطن ، أنظر : الأنصاري ، **نخبة الدهر** ، ص ٢٤٠ .

مصادر ومراجع البحث

أ) المصادر

الإدريسي ، أبوعبد الله محمد بن محمد (٤٩٣-٥٦٠هـ) — **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق** ، جـ١ ، روما : ١٩٧٠م .

الأنصاري ، شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أبي طالب (ت : ٧٢٧هـ) — **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر** ، نشر هرافيتر ، لايبزج : ١٩٢٣م

الاصطخري ، أبو اسحق إبراهيم بن محمد (ت في القرن الرابع الهجري) **كتاب مسالك الممالك** ، ليدن : ١٩٢٧م

ابن بطوطة ، أبو عبدالله اللواتي الطنجي (ت : ٧٧٩هـ) **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأقطار** ، بيروت : ١٩٦٤ م

ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي الموصلي (ت : ٣٦٧هـ) **كتاب صورة الأرض** ، ليدن : ١٩٣٨م

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت : ٨٠٨هـ) **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر** ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت : ١٩٥٩م ، طبعة مصر : ١٢٨٤هـ

البكري ، أبو عبدالله بن عبد العزيز بن محمد (ت : ٤٨٧هـ) **المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب** ، نشرة اندو ، الجزائر : ١٨٥٧م .

الزياتي ، الحسن بن محمد الوزان المسمى بـ (ليون الافريقي) (ت : ١٥٥٢م) **وصف افريقيا** ، الرياض : ١٣٩٩ هـ

السعدي ، عبد الرحمن بن عبدالله بن عمران (ت : ١٦٥٥م) **تاريخ السودان** ، نشر هوداس ، باريس : ١٩٦٤م .

العمري ، أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت : ٧٤٩ هـ) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** ، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٢٥٦٨ .

القزويني ، زكريا بن محمد (٦٠٠ - ٦٨٢هـ) **آثار البلاد وأخبار العباد** ، بيروت : ١٩٦٠م .

المغربي ، علي بن سعيد (ت : ٦٨٥ هـ) **كتاب بسط الأرض في الطول والعرض** ، تحقيق خوان فرتيط خينيس ، تطوان : ١٩٥٨ .

الناصري ، أحمد بن خالد **الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى** ، الدار البيضاء : ١٩٥٥م .

يوسف الحكيم ، أبو الحسن علي **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة** ، حققه وذيله حسين مؤنس ، مدريد : ١٩٦٠م .

ب) المراجع العربية

إبراهيم ، محمد عبد الفتاح بولم ، دينيز جاسم ، خليل إبراهيم **« امبراطورية مالي الإسلامية ، دراسة حضارية »** (٦٣٢ - ٧٩٣ هـ / ٢٣٥ - ١٣٩٠ م) **رسالة ماجستير غير منشورة** ، **جامعة الموصل** : ١٩٨٠ م

دافيد سون ، ب **افريقيا تحت أضواء جديدة** ، ترجمة م . أحمد ، بيروت : ١٩٦٣ م .

زاهر ، رياض **الممالك الإسلامية في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى** ، القاهرة : ١٩٦٨ م

الثقافات الافريقية ، القاهرة : ١٩٦٥ م .

الحضارات الافريقية ، بيروت : ١٩٧٤ م

زبادية ، عبد القادر — **مملكة صنغاي في عهد الأسبقين** ، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر : بدون تاريخ

زناتي ، محمود سلام — **الإسلام والتقاليد القبلية في افريقيا** ، بيروت : ١٩٦٩ م

طرخان ، إبراهيم علي — **دولة مالي الإسلامية ، دراسات في التاريخ القومي الافريقي** ، القاهرة : ١٩٧٣م

قداح ، نعيم — — **حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في أفريقية الغربية** ، دمشق : ١٩٦٥ م .

— **أفريقية الغربية في ظل الإسلام** ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، سلسلة الثقافة الشعبية ، عدد ٦ .

كوردول — **الفنون الافريقية** .

مؤلف مجهول — **الاستبصار** ، د . ت .

نوري ، دريد عبد القادر — « انتشار الاسلام في السودان الغربي من القرن ٥ ـ ١١ هـ / ١١ / ١٦م» رسالة دكتواره غير منشورة ، بغداد : ١٩٨١م .

المراجع الأجنبية

The Committe on Africa, — **The Atlantic Charter and Africa from an American Stand-point** New York: 1942, p. 117.

Divic, M. — **Le pays des zinds,** Paris: 1985

Erlmann. — "Some Sources on Music in Western Sudan from 1300–1700" **African Music Society Journal,** Vol. 5iii (1973), p. 37.

Hatch, John, — **Africa Today and Tomorrow,, U.S.A. 1965, (P.II).**

Triningham, J. Spencer, — **A History of Islam in West Africa,** London: 1963.

Islam in West Africa, London: 1959.

The Influence of Islam Upon Africa, London: 1980.